بستان الاطباء وروضة الالباء

او

دمشق في عصرها الذهبي

من اشرف اللذات وأبهج ادوار الحياة عندي ما مضى في الاهتمام بآثار السلف والاشتغال بحفظها من التلف ولقد حصلت اثناء عامنا المنقطع داخل ذلك البيت الصغير الذي استودعوه بقايا آثار الخزانة الشريفة العلوية بعد ما تفرّقت وتطرّقت اليها الحوادث بما تطرّقت حتى انها لتتألف الان من اوراق منتثرة واجزاء متبعثرة مما لا اوّل له ولا آخر في الأكثر . ولقد احتملت معي من تلك الاجزاء ما توسّمت انه انفسها واعتقها بعد ان فتح لي بيتها خاصة من بين بيوت المشهد العلوي الشريف .

ما تأملت تلك الآثار ولا تصفحت تلك الاسفار حتى علمت انها بغية الطالبين وحسرة الراغبين وضالة الباحثين غير اني وجدتها مما لا يمكن الانتفاع بها قطّ الا من بعد عناء طويل ونظر دقيق ومدارسة ومقابلة كثيرة وقفت لها وقتي وراحتي الى ان جلوت من عرائسها واستخرجت من نفائسها بعض ما امكن استخراجه بامداد الحق عزّ شأنه .

وكان من انفس ما تحصل من بين تلك الاجزاء الشريفة الجزء الثاني من كتاب « بستان الاطباء وروضة الالباء » تأليف الحكيم الامام الشهير موفق الدين ابي نصر اسعد بن ابي الفتح الياس بن جرجس المعروف بابن المطران الدمشقي المتوفى سنة ٥٨٧ والجزء ناقص مخروم الطرفين الباقي منه خمسة عشر كراساً فقط اولها الخامس وآخرها العشرون اي قد سقط من الجزء عشرة كراريس خمسة من اوله ونحو ذلك من آخره بدليل وجود فائمة واحدة بقيت من الكراسة الخامسة والعشرين عليها رقمها (٣٥) مما يقضي بان الجزء تألف من خمسة وعشرين كراساً في كل كراس عشر قوائم في كل فائمة (٢٣) من السطور والنسخة جيدة الخط مشرفة الحروف واضحة السطرة مصفرة لون الورق رقيقة يكاد يتفتت ورقها او يتهرأ لرقته لا تخلو من الغلط على قلة فيه وقد سقطت وشذت بعض اوراق من كراريسها الموجودة الآن

الثمانية الاخيرة من الكراس الاخير المفقود من الكتاب — وفيها تاريخ نسخه — بقيت سالمة تدل على انّ نسختنا النفيسه نسخت بعد وفاة المؤلف بسنة واحدة لا غير حيث جاء في آخرها ما نصه

« تمّ الكتاب والحمدلله وصلى الله على سيدنا محمد واله وسلامه ووافق الفراغ منه في سنة ٥٨٨ هجرية على صاحبها افضل الصلوة والسلام والتحية والاكرام »

مكانة الكتاب

لا يعرف مكانة هذا الاثر الجليل الاّ من اعتبر حال ابن المطران في نباهة ذكره وصدارته في دمشق بعد ان اسلم وحسن اسلامه ايام الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله وارتقائه الى ما يشبه منزلة الوزارة عنده وزهوه وتكبره حتى على الملوك الى هذا وغيره من يساره وسعة حاله واطلاعه واتساق اسباب التأليف والتصنيف له باجتماع خزائن الكتب عنده فقد كانت له « همة عاليه في تحصيل الكتب حتى انه مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة الاف مجلد خارجاً عما استنسخه بيده وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها وكان في خدمته ثلاث نساخ ينسخون الكتب ابداً ولهم منه الجامكية والجراية وكتب ابن المطران بخطه ايضاً كتباً كثيرة وهي في نهاية حسن الخط والصحة والاعراب وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك في اكثر اوقاته واكثر الكتب التي كانت عنده توجد وقد صححها واتقن تحريرها وعليها خطه بذلك . وبلغ من اعتنائه بالكتب وغرايته فيها انه نسخ الكثير من الكتب الصغار والمقالات الكثيرة المتفرقة في الطب وهي في الاكثر يوجد منها جماعة في مجلد واحد استنسخ كلاً منها بذاته في جزء صغير قطع نصف ثمن البغدادي واجتمع عنده من تلك الاجزاء الصغار مجلدات كثيرة جدا فكان ابداً لا يفارق في كمه مجلداً يطالعه على باب دار سلطان او اين توجه (١)

فهذا من اغرب ما يروى عن غواة الكتب وعلماء الآثار ولكن ما لنا ولتلك الروايات وهذا الكتاب نفسه شاهد عدل ناطق بصحة ما اوردوه عن ابن المطران من

(١) عيون الانباء ٢ : ١٧٨

استهتاره بالكتب وتوفره على جمعها والنظر فيها اذ الكتاب عبارة عن مجموع كبير وتذكرة خطيرة قيد فيها ابن المطران كل ما استطرفه وعلق جميع ما استحسنه من فوائد الكتب المختلفه والمجاميع المتنوعه . شعاره في ذلك الامانة التامة في النقل وتعريف كل كتاب ونسبته الى مؤلفه قبل النقل عنه فجاء بستان الاطباء كاسمه « بستاناً » فيه من كل الثمرات قال ابن ابي اصيبعه (١) ان غرض مؤلفه منه « ان يكون جامعاً لكل ما يجده من ملح ونوادر وتعريفات مستحسنه مما طالعه او سمعه من الشيوخ او نسخه من الكتب الطبية ولم يتم هذا الكتاب والذي وجدته منه بخط شيخنا الحكيم مهذب الدين جزآن الاول منهما قد قرأه على ابن المطران وعليه خطه والجزء الثاني ذكر مهذب الدين ان ابن المطران وافاه الأجل قبل قراءته عليه »

والكتاب بعد هذا من مآخذ عيون الانباء كما يظهر من عدة ابواب من العيون منها الباب الاول في « كيفية وجود صناعة الطب واول حدوثها » فان اكثر ما فيه منقول عن البستان مع النص والتصريح بذلك (٢) ولكن لا ريب عندنا في تطفل ابن ابي اصيبعة على « بستان الاطباء » واختلاسه بعض الفصول الممتعة منه برُمتها كما فعل في « باب طبقات النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيرها من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا اليهم » فان هذا الفصل منقول عن البستان بأسره من دون اشارة ما الى ذلك وقد نقل مع الاخلال بشرط الامانة في النقل ومع تصرُّف في العبارة غير محمود (٣)

فوائد الكتاب

اما فوائد الكتاب فمما لا تقدر اذ هو — كما مرّت الاشارة الى ذلك — خزانة ملح ونكت ونوادر ونبذ وفصول ممتعة في الفن والفلسفة والحكمة واللغة والتاريخ وغير ذلك منقولة عن امهات الكتب والاثار الحافلة النادرة التي لا يتهيأ العثور على مثلها الا لامثال ابن المطران من رجال الاجتهاد والطلب والتحصيل هذا

(١) العيون ٢ : ١٨١

(٢) العيون ١ : ٥ — ٧ (٣) العيون ١ : ٣٠٣ — ٣٠٦

مضافًا الى ما في الكتاب من تعاليق وابحاث مختلفة خاصة للمؤلف يوردها على الاكثر بعنوان « لي » وهي لا تقل شأنًا عما تقدم من حيث الفائدة والامتاع

من امتع فصول هذا الجزء ذلك الفصل الذي اذاع المؤلف فيه فضل اطباء عرب الاندلس خصوصًا « بني زهر » واثنى على كتبهم ابلغ ثناء بعد ان اقتطف على عادته منها ما شاء ومن هذا الفصل يظهر لك مبلغ غلوه في طلب الآثار ويتضح اسلوبه في تأليف الكتاب قال

« قد رأيت في كتب هؤلاء القوم « الاندلسيين » من الاشياء الغريبة البديعة والواقعات الطريفة العجيبة والتجارب الكبيرة الجليلة والمعاني المبتكرة الفاضلة والاختصارات الجامعة الضابطة والمداواة السهلة النافعة ما يُرغبُ في احتشادها والانعكاف عليها دون غيرها من كتب المتأخرين لولا ان فيها اصطلاحات لا يعرفها الا من سأل اولي علمهم عنها وذوي المعرفة بلسانهم عن تعريبها والذي وقع لي الى الان التذكرة والتيسير والزينة والاغذية بعد تعب عظيم وخسارة كبيرة وتوصّل شديد ولما جاءتني لما تكن بالغة في الصحة مفسرة الالفاظ كما يجب وقد تقدم من تفسير الفاظ مضت في الوصية — يعني وصية ابي العلاء بن زهر لابنه وقد اثبتها وفسر غريبها — ما تقدّم وما ابخل ان شاء الله بايداع كتابي هذا كل ما اقدر عليه من تفسير وكشف معنى غامض ومن وقع بهذه الكتب عرف مقدارها وانا اذا ذكرت في كتابي اسم كتاب فلا ازال آتي منه بما آتي وان اختلفت اسماء المواضع بنكتة واشارة ولمعة وما شاكل ذلك فما انتقلت عن الكتاب حتى اذكر اسم كتاب اخر وانا الى الان في النقل من كتاب « التيسير » لابي مروان »

وقال في مكان آخر « ابو مروان عبدالملك بن زهر هو صاحب التجربة بالادوية وتركيبها كان لا يزال يركب قوى الادوية وطعومها ويجربها مع الاحراق والغسل وبغير ذلك وبغاية الدق والسحق ويتصرف فيها سائر التصرفات له غية عظيمة فيه ونعم الغية هي »

قلتُ احسن ابن المطران ما شاء في نقد كتب « بني زهر » واختيارها واصاب كل الاصابة في الثناء عليها وباليته علم انها الى الان مما يُعوّل عليه بعض اطباء

الافرنج الجاحدين لنعمة الشرق والاسلام فان كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» لابي مروان بن زهر المذكور ترجم الى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٤٩٠ وفي ليون سنة ١٥٣١ كما ترجم ايضاً لابي مروان رسالتان في الحميات طبعتا في البندقية سنة ١٥٧٨ وهذه الكتب الثلاثة خاصة لم تذهب مزاياها الى هذا الوقت كما اثبت ذلك بعض الباحثين

وشكا ابن المطران في غير هذا الموضع فتور اهل زمانه وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بتفاهة الخطب في هذا الشأن وقد اصاب حدسه كما لا يخفى على من له بصر في التاريخ ثم اشار الى ما رآه من الخلل الواضح في كثير من كتب الطب فيما يعود الى صفة الادوية وذكر تصميمه على وضع كتاب يسدُّ ذلك الخلل وقد قال في ذلك .

«قد رأيت كثيراً من كتب الطب مُهملة لا يقال فيها سوى يؤخذ كذا وكذا محرقاً او مغسولاً او مقتولاً او مدقوقاً او بحالة اخرى على كثرتها وليس فيها كيفية ذلك العمل فيبقى الرجل متحيراً في كيفية العمل ان كان الرجل عاقلا او يعمله بواقعات ردية او ظنون فاسدة ان كان مُحققاً وكنت قد عزمت على ان اضع كتاباً اصف فيه كيفية عمل هذه الاشياء اجمع مما يوجد في الاقرابادينات فدهمتني الاسفار والبعد عن الكتب التي يحتاج مثل هذا الامر الجليل الى التطلع فيها وان تكون حاضرة فاحتجت الى ان اضيف ذلك ايضاً الى هذا المجموع فان فسح الله في الاجل فسانتصب له انتصاباً يستحقه واخرجه الى مصنف مفرد ان شاء الله وان اتى امر الله الذي لا يرد كنت قد ذكرت في كتابي هذا ما ينتفع به خير من ان يبقى الامر على عماه وغموضه وتبدده في الكتب وشسوع مطلبه وحاجته الى همم لا اراها في اهل هذا الزمان وما اظن كتابي هذا يقرأ ايضا ان تمادت الهمم على نقصها والى الله ترجع الامور»

وقد شرع ابن المطران في وضع كتابه المذكور في الادوية المفردة على الاكثر ولكنه لم يتم على ما ذكر ابن ابي اصيبعة قال وكان قصده فيه ان يستوعب ذكر كل دواء دواء على غاية ما يمكنه .

وامهات الكتب التي اخذ عنها ابن المطران ما اخذ في هذا الجزء من النكت والاشارات والفصول والتعريفات كثيرة بعضها ما لا نعرف منها الا الاسماء وبعضها ما لا نعرف منه حتى الاسماء وانما اقتدنا الوقوف عليها مؤلف «البستان» واليك تسميتها على الاجمال (١) فهرست حنين بن اسحق لما نقله من كتب جالينوس (٢) تعاليق لحنين بن اسحق (٣) ادب الطبيب (٤) شرح الفارابي لايساغوجي الشرح الصغير (٥) كتاب رسوم التعاليم تأليف القاضي ابي محمد عبيدالله بن احمد الرازي (٦) كتاب القوة والضعف لقسطا بن لوقا (٧) تاريخ ثابت بن سنان اخذ عنه جملة فوائد في وفيات الاطباء والفلاسفة وغير ذلك اثنى على هذا الكتاب ابن ابي اصيبعه وذكر انه عثر على نسخة الاصل منه (٨) تعاليق ابي سليمان المنطقي شيخ ابي حيان التوحيدي نقل عنه نكتاً لطيفه ومن الطفها نكتة حكاها ابو سليمان عن حقيقة الكتب المنسوبة الى جابر بن حيان ان الحسن بن النبكد الموصلي كان صديقي وهو الذي كان يؤلف الكتب وينسبها الى جابر بن حيان ويحملها الى المتهوسين بصناعة الكيمياء فيحصل بها منهم الجملة الصالحة من الدراهم (٩) فاطيغوريا س شرح متى (١٠) النبض الكبير لجالينوس عمل حنين مسئلةً وجواباً (١١) كتاب حيلة البرء لجالينوس (١٢) المدخل الى علم الاخلاق لنيقولاوس (١٣) الكتاب المحيط بصناعة الطب تأليف محمد بن شجاع (١٤) كتاب ايساغوجي عمل اللينوس (كذا) شرح الحسن بن سوار على طريق الخواشي (١٥) كتاب وصية المسافر تأليف احمد بن الطيب السرخسي (١٦) كتاب التفهيم لاوائل صناعة التنجيم للبيروني (١٧) الصناعة الصغيرة لجالينوس (١٨) كتاب الخدر لقسطا بن لوقا (١٩) تفسير متى لايساغوجي فوفوريوس (٢٠) باري ارمينياس شرح متى (٢١) رسالة الكندي في انه لا سبيل الى التفلسف الا بعلم الرياضيات (٢٢) كتاب الجذام للكندي (٢٣) كتاب الحس والمحسوس لارسطوطاليس (٢٤) كتاب ابي بكر الرازي في الطب (٢٥) كيناش بن سرافيون (٢٦) مقالة ابن الجزار في القرس (٢٧) كتاب حب العروس في الطب للتميمي (٢٨) كتاب الكفاية في الطب تأليف ابي سهل معمر بن عمر بن الحجاج الفارسي (٢٩) كتاب المزاج لجالينوس (٣٠) كتاب الطب الكبير

والتدبير السهلي للمسيحي (٣١) كتاب ابي سهل عيسى بن يحيى المسيحي في منافع اعضاء الحيوان (٣٢) كتاب المعتبر لاوحد الزمان ابي البركات (٣٣) تذاكير العلماء تأليف الحسن بن موسى الدينوري بخطه (٣٤) كتاب النبض شرح يحيى النحوي (٣٥) كتاب اسحق بن عمران في النبض (٣٦) شرح الفرق لابن رضوان . هذه الآثار الجليلة كلها من جملة ما حوته خزائن دمشق الشام ابان نهضتها العلمية الكبرى في القرنين السادس والسابع ولكن لا اثر لشيء منها على ما نعلم فيما بقي الى الآن من دور الكتب في الديار الشامية فهل تلاشت تلك الآثار او انتقلت بانتقال دولة العلم الى غيرها من البلاد والايام دول بين العباد

النجف الاشرف محمد رضا الشبيبي

من اوضاع مجمعنا ومعرّباته (١)

الغدّان = القضيب تعلّق عليه الثياب (للقدّة) وهي العصا التي توضع فوق الشباك يعلّق فيها الستار

المصعد = اسم آلة للصعود (للسانسور)

النحيزة = وهي طرة تنسج ثم تخاط على شفة الشقة التي تلي الارض من الحباء كما في ابن السكيت (للسجق) وهو اهداب الستار

الرمانة او التفاحة = (للصافية) وهي رمانة او تفاحة في السجف «البردائية» لانهما اشبهتا بها شكلاً وتسمية عامية فصيحة

المناط = اسم مكان من ناط اي علق «لا سقي» اي محل التعليق

المدرج = وهو الكتاب المطوي او الرقعة الملفوفة قال الحريري : فانصاعت تقتص مدرجها وتنشد مدارجها . «للفلم» وهو الحل الذي تعرض فيه صور السينما «الصور المتحركة» بجامع الرقة والطي (طا بقية)

(١) الناظر عرضها دولة حاكم دمشق في الجمع فاقرها على هذه الصورة بجلسته العامة الثانية عشرة يوم الخميس في ٣٠ اذار سنة ١٩٣٣